الفصل الرابع

الفكر الإسلامي بين أفكار أخرى

● **توطئة :**

لعمرى ان الحديث عن الفكر الاسلامى وسط أفكار أخرى كالحديث عن الورد وسط الشوك،أو عن الواحة وسط الصحراء ..

ان العالم يعج بأفكار شتى ، لكنه بها يضل ويشقى !

ولقد يطول بنا الحديث حول فلسفات ظهرت فى القديم وأخرى ظهرت فى الحديث .. بعضها ظل حبيس النظرية ، وبعضها جاوزها الى التطبيق فقامت عليه أنظمة هنا وهناك !

ويهمنا فى تلك الأفكار والفلسفات ما قامت عليه أنظمة ، أما ما بقى منها حبيس النظريات والخيالات فليست موضع اهتمامنا .

كذلك يهمنا من هذه ما يعيش فى هذا العصر ، أما ما اندثر منها فليس كذلك موضع اهتمامنا (١) .

واذا نظرنا حولنا الى الأنظمة القائمة فان أكثرها يقوم على أساس من فكر مادى ..

---

(١) وذلك انطلاقا من القاعدة الاسلامية الأصيلة : لا قيمة لعلم لا ينبنى عليه عمل ، وقد سأل الرسول ربه « اللهم انى اسألك علما نافعا » وسأله « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع » .

فكر مادى يعلن العلمانية ويعليها ، لكنه يسمح معها للدين بالوجود ، ويحدد له نطاق هذا الوجود ، أو يحدد اقامته فى حدود محدودة !

أو فكر مادى يعلن العلمانية او لا يعلنها ، لكنه ينكر الدين ولايسمح له بالوجود ، وان اضطر فعلى استحياء — ان كان قد بقى عنده حياء — أو بعبارة اصح فعلى سبيل (التكتيك المرحلى) حتى لايتهم بحرب الدين أو حتى يضحك على السذج البسطاء من أبناء العالم الاسلامى الذى يخاطبهم بماديته ، ويحاول أن ينقلهم الى كفره والحاده .. ولكن على طريق : خطوة .. خطوة !

بيد أن كلا الفكرين قائم على اساس مادى ، ورغم اختلافه الأنظمة الظاهر ، فان لقاءهما وارد وقريب !

بيد أن دعوات تعج بها المنطقة بعضها يدعو الى الاغراق فى الروحانية ، ويجد التشجيع من انظمة كثيرة تجد فى هذا الاغراق ما يكفل الانشغال عنها وترك الساحة لها تفعل فيها ما تشاء ، غير أن تلك الدعوات أدت يوما دورها فى نشر الاسلام بل وأحيانا فى الجهاد ، لكن كثرت فيها البـــدع ، واشتدت فيها التجزئة لمنهج الاسلام .

ودعوات أخرى غالت فى دعوى « الحاكمية» فكفرت المجتمعات أو جهلتها (أى وصفتها بالجاهلية) لتستر حقيقة اعتقادها فيها ، فانحرفت ذات اليمين فى مواجهة انحراف الأخـــرى ذات اليسار ، أو وقعت فى الافراط فى مواجهة وقوع الأخرى فى التفريط .

وبين هـــذه وتلك قامت دعوات أصيلة بعدت عن الافراط والتفريط ، وتميزت بالوسطية والاعتدال ، لكن بعضها ابتلى بلاء شديدا ، بل زلزل زلزالا شديدا ، ظن الناس معه أن لا قيام لها ولا بقاء ، لكنها خرجت من محن كثيرة أعمق جذورا وأصلب عودا ، وامتدت شجرتها الى السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ، وجاوزت فروعها حدود الأقطار لتحقق « عالمية الدعـــوة الأولى » مرة اخرى !

ولنا مع كل كلمة .. والله المستعان .

* * *

أولا : مع الفكـــر المـــادى

● **تقـــــدمة :**

الفكر المـــادى له أصوله وجذوره التى تمتد فى أعماق التاريخ! وله مدارسه التى تعددت وتشعبت وتسمت بأسماء كثيرة ! لكن يبقى بعد ذلك أن أساسه واحد .. هو الاعتداد بالمادة ، سواء اعترف معها للدين بكيان ، أو أنكر عليه ذاك الكيان !

ونشير الى الأساس المادى بكلمة ، ثم الى الاعتراف للدين بكلمة ، ثم للانكار على الدين بكلمة اخرى — والله المستعان !

١ ــ الاساس المــادى :

لئن تشعبت الفلسفات والأنظمـــة المختلفة فيما تعتنق من مذاهب فكرية مادية ، فانه يجمعها أنها تتخذ « المادة » المحسوسة أساسا لها .

وقديما قال قوم **« ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »** (٢) .

وقال آخرون **« ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر »** (٣) .

وحديثا قال قوم : « الحياة مادة » .

وقريبا منهم قال آخـــرون بالمنفعة وأقاموا عليهـــا فكرهم وفلسفتهم .

والذين قالوا بالمادة قصدوا منها ما كان محسوسا ..

لما التطور الحديث للمادة والقول بأن الطاقة مادة فلم يكن أساس نظرياتهم .

وأيا كان مقصود المادة عند هؤلاء أو أولئك فان انكار الجانب غير المادى سواء منه الجانب المعنوى أو الجانب الروحى أو عالم الغيب ــ كل ذلك أدى بهم الى نتائج غير صحيحة ، كما أدى الى عدم التوازن بين القوتين .

---

(٢) المؤمنون : ٣٧ .

(٣) الجاثية : ٢٤ .

ذلك أن ارادة الله شاءت أن يكون الجانب غير المادى الى جوار الجانب المادى مشكلا للحياة ، وأن تكون الآخرة امتدادا للأولى ، بل الآخـــرة خير وأبقى ، وأن يكون عالم الغيب الى جانب عالم الشهادة،وأن تكون معرفة الأول بالقلب والروح والعقل ، وأن تكون معرفة الثانى بالحواس .

وأن يكون تكوين الانسان نفسه .. قبضة من طين (هى من عالم الشهادة) ، ونفخة من روح (هى من عالم الغيب) .

ومن ثم فلا يسعد الانســـان اذا أشبعت حاجاته المـــادية جميعا ، اذا أغفل فيه جانب القلب والروح ، تماما كما لا يكفيه أن تتحقق له أشواق الروح مع حرمانه من حاجات الجسد ..

وكما لا ندعو الى رهبانية تعتمد الروح وتقهر الجسد ، فاننا لا نعتمد المادية التى تقهر الروح أو تغفلها وتغفل معها عالما كاملا للغيب معترفة فقط بعالم الشهادة أو عالم المادة !

والواقع الذى عاشته الانسانية فى ظل المادة — مهما كان تقدمها — كفيل بالرد على أولئك الذين اعتبروا الحياة مادة ، وبنوا نظرياتهم وسلوكهم وحياتهم على أساس منها .

ان الانســـانية لم تكن أشقى فى يوم منهـــا فى ذلك اليوم وحسبنا ذلك .

٢ ــ الاعتراف بالدين :

لا نود أن نكرر هنا قصة فصل الدين عن الدولة (٤) ، ولكنا نشير الى أن الغرب المادى الذى بنى فكره وحياته على أساس من ذلك الفصل ، أبقى للدين حياته مع تحديد اقامته !

فلم يعد مسموحا لدين أن يتجول فى الشارع أو أن يدخل المدرسة والجامعة ، وصارت مناهج الدراسة وبرامج الاعلام بعيدا بعيدا عن الدين ، بل ولقد خلت المعاملات فى المتاجر وفى البيوت من ذلك الدين ، وخلت محلها قيم مادية قائمة على المنفعة !

وفى محل اقامة الدين .. تضاءل كثيرا فى نفوس أصحابه ، وأصبح « رجل الدين » يمارس حياته كما يمارسها رجل الشارع ، عدا زى يتوشح به ، وساعات يقضيها يوما فى الاسبوع يمارس طقوس الدين ويردد ترانيمه أمام من بقى يتردد على الكنائس بل وحتى هذه الساعات .. لا تخلو فى بعض الأحيان وبعض الاماكن من العبث تشجيعا للمترددين والمترددات (٥) .

وأصبحت « ظاهرة » أن يعلن عن بيع الكنائس بعد أن قلت الحاجة اليها !

---

(٤) راجع ما كتبناه فى « الاتجاهات الفكرية المعاصرة » .

(٥) نشير الى ما صار معروفا من لجوء بعض كنائس الغرب (شاملا أمريكا) الى الاعلان عن حفلات راقصة تجرى بعد طقوس العبادة تلتصق فيها أجساد الجنسين وتخفت الأضواء تحت رعاية (رجال الدين) .

وخلاصة القـــول انه فى البـــلاد التى تأذن المـــادة فيهـــا للدين بالوجود ، فانه وجود ضعيف فى نفوس أصحابه ، ثم هو وجود محدد الاقامة ، فلا شأن له بمؤسسات الدولة وأجهزتها ، ولا بالشارع والحديقة والمسرح والسينما والبيت .

٣ ــ انكار الدين :

وفى أكثر من نصف العالم اليوم ينكر الدين .

بمقولة أنه مخدر للشعوب ، وأنه من بقايا «البورجوازية» أو « الرجعية » ويبلغ الأمر فى هذه البلاد حد اعلان « الالحاد » ، وتبنى فكره ، واقامة المعـــاهد والمؤسســـات التى تدعـــو له وتنظره !

كما يبلغ الأمر فى تلك البلاد حـــد استئصال شأفة الدين بتجفيف منابعه وغلق نوافذه ، واستئصال شأفة المستمسكين به واضطهادهم ، وقصة اضطهاد المسلمين فى الاتحاد السوفييتى ابتداء من الثورة البلشفية المشئومة عام ١٩١٧ وحتى اليوم ، وقصة اضطهادهم فى الصين الشيوعية ، وفى بلغاريا ، وفى البانيا ، وفى رومانيا ، وفى غير تلك البلاد مما دخلته الشيوعية..كل ذلك لايحتاج الى اعادة سرد .

وتتسق الدعوة الى الالحاد مع اعتناقهم المذهب المـــادى ، اذ مقتضى الالحاد انكار عـــالم الغيب ، وهـــو ما يتسق مع القول بأن الحياة مادة .

ويظن البعض أن المعسكرين السالفين مختلفين ، بينما يجمعهما مذهب مادى واحد ، والاختلاف القائم اختلاف مصالح لا اختلاف فكر حقيقى ، واحتمال التقائهما أكبر من احتمال اتساع شقة الخلاف بينهما — والله أعلم (٦) .

* * *

ثانيا : الاغراق الروحى « تفريط »

● **تفـريط :**

كما انتقدنا اعتماد المادة دون الروح ، فاننا هنا ننتقد اعتماد الروح دون المادة ، أو الاغراق فى الجانب الروحى على حساب الجانب المادى .

وأيا كان القصد من ذلك الاغراق فانه يؤدى حتما الى افتقاد التوازن .

وصورة ذلك الاغراق الروحى تتمثل فيما زعمه بعض رجال النصرانية من « رهبانية » ، وقريبا منها أو تقليدا لها ما رددته بعض الفرق الصوفية ، مجانبة بذلك منهج الاسلام المتكامل الذى يعتمد تزكية الروح كما يلبى مطالب الجسد .

● **تفريط أكثر :**

ولم تكتف بعض الفرق بمخالفة منهج الاسلام بالاغراق فى

---

(٦) راجع التخطيط للدعوة .

الجانب الروحى على حساب الجانب الآخـــر ، بل راحت فى هـــذا الجانب كذلك تخالف الاسلام .

فللاسلام منهجه فى التزكية والتربية عرضنا له فى غير هذا المكان (٧) .

وبدلا من اقامة هذا المنهج الذى نفذه رسول الله ﷺ ، أتوا بأمور ابتدعوها من عند أنفسهم سواء فى طريقة الذكر أو فى هيئته أو فى « الصيغ » التى قد تتضمن مساسا بعقيدة التوحيد .

وكان مما وقعوا فيه اقامة « الموالد » التى يجرى فى اكثرها الاختلاط المشين ، وتقع فيها كثير من المخالفات الشرعية التى تصل فى بعض الأحيان حد ارتكاب الفواحش !

وكان مما وقعوا فيه كذلك تمسحهم « بالمقامات » المقامة فوق القبور وطوافهم حولها ، وســؤالهم الأموات وهم لا يملـــكون لأنفسهم ـــ فضلا عن أن يملكوا لغيرهم ـــ نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

● **تفريط أشد :**

وكان أشد ما وقع فيه بعض الفرق قولهم بالحلول .

وقريبا من هؤلاء الذين ألهوا عليا رضى الله عنه ، أو قالوا ان الوحى أخطأ فى طريقه اليه فنزل على محمد ﷺ .

* * *

(٧) راجع « نحو نظرية للتربية الاسلامية » للمؤلف .

ثالثا : مغـالاة : « افـراط »

أزاء ما تتابعت فيه مجتمعاتنا من فساد وفسق وفجور ، وازاء ما سقطت فيه الأنظمة الحاكمة من اضطهاد للسائرين فى طريق الدين متهمين اياهم بالتطرف والتهوس ، ومصطنعين القضايا لتبرير الانقضاض عليهم والتنكيل بهم تحقيقا وتعذيبا ومحاكمة وامتهانا .. فقد كان من ردود الفعل القول بكفر الحاكمين ، وتجاوز ذلك الى معاونيهم ، ثم تجاوز ذلك الى الراضين بهم والساكتين عليهم ، وأخيرا صبغ المجتمع كله بالكفر .

وكان البعض اكثر « لباقة » أو اكثر « حكمة » فلم يستخدم لفظ الكفر الا نادرا وأبدل به لفظ الجاهلية ، فوصف الأنظمة بانها جاهلية ، ووصف المجتمعات كذلك بالجاهلية !

● **الحكام والأنظمة :**

ولقد يكون صحيحا كفر الحـكام والأنظمة الرافضة لشرع الله ، بالضوابط التى ساقها العلماء ، والتى عرضنا لها فى غير هذا المكان (٨) .

ولقد يكون صحيحا كذلك وصف أولئك الحكام وتلك الأنظمة بالجاهلية .

ذلك أن النصوص فى ذلك صريحة : **« ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون »** (٩)

---

(٨) المشروعية الاسلامية العليا ـــ للمؤلف .
(٩) المائدة : ٤٤ .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجـر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »(١٠) .

« أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١١) .

ولئن قال البعض بتفسير الكفر بأنه كفر دون كفر ، أو قال البعض الآخر انه جاء فى أهل الكتاب ، أو زعموا أن نفى الايمان هنا ليس نفيا لأصل الايمان ، فانه يبقى احتمال التفسير الآخـر قائما ، خاصة فى شأن من يملك أمر التشريع .

ذلك أن من حكم بمعنى شرع ، غير من حكم بمعنى نفذ (١٢) .

ومن ثم فلا نرى مانعا من اطلاق هذه الأوصاف على الحكام والأنظمة الرافضة لشرع الله .

● **المجتمعات :**

أما وصف المجتمعات بالكفر اطلاقا بغير تقييد ، وتعميما بغير تخصيص فهو أمر لايجوز ، ونظيره وصف هذه المجتمعات بالجاهلية.

ذلك أن المجتمعات تحوى الى جوار من قد يكون كافرا لسبب أو لآخر ، تحوى المسلمين والمؤمنين والمحسنين ، ومنهم من ينكر

---

(١٠) النساء : ٦٥ . (١١) المائدة : ٥٠

(١٢) المرجع السابق ، دعـاة لا قضـاة للمستشار حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين رحمه الله .

بيده ، ومنهم من ينكر بلسانه ، ومنهم من ينكر بقلبه وذلك اضعف الايمـــان .

فلا يعنى السكوت الرضا .

لأن الرضا أمر قلبى لا نملك القطـــع به ومن ثم لا نملك القول به .

كذلك اطلاق لفظ الجاهلية ـــ دون تحـــديد ـــ فانه يعنى جاهلية العقيدة ، وجاهلية العادات ، والعبادات ، وهو أمر غير صحيح على اطلاقه ، فعقيدة اكثر هـــذه المجتمعات التوحيـــد ، وعباداتهم مستمدة من شرع الله ، ولئن توافر شىء من التقصير أو الانحراف فى مجالات عدة فانه لا يبرر وصـــف الجاهلية على اطـــلاقه .

أما الأفراد فيحتـــاج الأمـــر بالنسبة لهم السؤال والتحقيق للتبين ، كما يحتاج بعد التبين الى الاستتابة ، فان أصروا حق فيهم حد الارتداد .

● دعاة لا قضاة :

ونحن ـــ فى مرحلة الدعوة ـــ دعاة ، ويوم تصير الينا الدولة لا بأس أن يكون منا قضاة ، يحاسبون ويحاكمون .

ومن ثم فان المنهج الذى نرتضيه فى هذه المرحلة هو ما قاله رسول الله ﷺ لحكيم بن حزام فيما رواه البخارى « أسلمت على

ما سلف من خـــير » ، وفى رواية مسلم « اسلمت على ما اســلفت من خير » .. والله أعلم .

* * *

رابعــا : فكــر أصيل

يقف الفكر الاسلامى الأصيل ... وسطا بين هــذه الأفكار الشتى .

فلا هو يميل مع الذين عبدوا المادة..وانكروا ما وراء ذلك .

ولا هو يميل مع الذين اغرقوا فى الجانب الروحى ، واهملوا ما دون ذلك .

ولا هــو يميــل مع الذين افرطوا فى التكفير والتجهيــل ، وايأسوا الناس من رحمة الله .

انما هو يقف مع الكتاب والسنة والسيرة :

« الذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلاة انا لا نضيع اجر المصلحين » (١٣) .

« الذين يؤمنــون بالغيب ويقيمون الصــلاة ومما رزقنــاهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » (١٤) .

« لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق .. »(١٥).

---

(١٣) الأعراف : ١٧٠ .
(١٤) البقرة : ٣ ، ٤ .
(١٥) النساء : ١٧١ .

« من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، القصد القصـــد تبلغوا » .

« ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » .

« أسلمت على ما أسلفت من خير » .

وهو بعد ذلك يعرف غايته : انها الله ... رضاه ، والجنة ..

ويعـــرف منهجه ... انه المنهج الربانى المستمد من الكتاب والسنة .

ويعرف وسيلته انه ما شرعه الله نصا أو ما أذن به دون اضرار أو افساد ، ويستمسك بخلقه وقيمه ومثله .

ويدعو بعد ذلك الى الله على بصيرة ، بالحـــكمة والموعظة الحسنة ، وهو فى النهاية حرب على أعدائه سلم لأوليائه « **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم** » (١٦) .

* * *

(١٦) المائدة : ٥٤ .